الفصل الثالث : المنهج النبوي في التدرج في التبليغ

التدرج في التبليغ :

إن رسالة الإسلام تدرجت في تبليغ دعوتها للناس،كما تدرجت في تشريع الأحكام وإنزال التكاليف، فتجزأ البلاغ على شعب الحياة، ورتب الهموم، وأجناس الناس والأقوام والأمم، على مر ابتعاث الرسل والنبيين عليهم من ربهم أزكى الصلاة وأتم التسليم .

obeikandl.com

المبحث الأول : تدرج الدعوة بين الرسل

و لم يكن بلاغ كل رسول كاملا يغطي كل الدين ، بل بدأ البلاغ يصوب همه على قضية، أو يتحرف على أمة أو قوم ، يتسع بتوالي الرسل وتجدد الدعوة ونزول الكتب حتى اكتمل دينا ، وتم نعمة يمن به الله تعالى على عباده ، ويرضاه لهم ، ولا يقبل غيره من دين إنه الدين الذي ارتضاه الله سبحانه وتعالى للعالمين : "﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة : ٣) .. ويرتب على ذلك القرار الإلهي الحاسم أنه : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾" (آل عمران : ٨٥) .

قال ابنُ كثير – رحمه الله –: "هذه أكبرُ نِعَم الله – تعالى – على هذه الأمَّة؛ حيث أكمل تعالى لهم دينَهم، فلا يحتاجون إلى دينٍ غيره، ولا إلى نبيٍّ غير نبيِّهم – صلَوات الله وسلامُه عليه – ولهذا جعله الله تعالى خاتمَ الأنبياء، وبعَثَه إلى الإنسِ والجنِّ، فلا حلالَ إلاَّ ما أحلَّه، ولا حرام إلاَّ ما حرَّمه، ولا دين إلاَّ ما شرعَه، وكلّ شيء أخبرَ به فهو حقّ وصدق لا كذب فيه ولا خُلف، كما قال تعالى :﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۖ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾(الأنعام: ١١٥)؛ أي: صدقًا في الأخبار، وعدلاً في الأوامر والنَّواهي، فلمَّا أكمل لهم الدّين تمَّت عليهم النِّعْمة؛ ولهذا قال تعالى :""﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾؛ أي: فارضوه أنتُم لأنفُسكم، فإنَّه الدّين الَّذي أحبَّه الله ورضِيَه، وبعث به أفضل الرُّسُل الكرام، وأنزل به أشرفَ كتُبِه .[1]"

وقارئ القرآن لا شك ، يجد أن دعوات الرسل تتكامل،إذ كل يبلغ أمته بشعبة من الدين، ويقيم فيهم جانبا من الحياة .

وإن كان لابد من إيراد نماذج ، فموسى عليه السلام عالج في قومه الجبروت ، وقام يحررهم من استعباد فرعون ، وقد كلف بذلك ، يقول لفرعون : "أرسل معنا بني إسرائيل" .. ويقول له ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ (الشعراء : ٢٢) .

---

(١) ابن كثير ، **تفسير ابن كثير** ط١ (٥ /٢٤٦)

قال سيد قطب : وواضح من هذا ومن أمثاله في قصة موسى- عليه السّلام- في القرآن، أنه لم يكن رسولا إلى فرعون وقومه ليدعوهم إلى دينه ويأخذهم بمنهج رسالته. إنما كان رسولا إليهم ليطلب إطلاق بني إسرائيل ليعبدوا ربهم كما يريدون. وقد كانوا أهل دين منذ أبيهم إسرائيل- وهو يعقوب أبو يوسف عليهما السلام- فبهت هذا الدين في نفوسهم، وفسدت عقائدهم فأرسل الله إليهم موسى لينقذهم من ظلم فرعون ويعيد تربيتهم على دين التوحيد. (١).

وشعيب عليه السلام ، يبلغ أمر الله في الأموال والبيوع ، ينادي فيهم أن لا يطففوا ولا يخسروا الموازين والمكاييل، وأن يعرفوا حق الله في أموالهم،يقول لهم : ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ۞ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۞ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ (الشعراء : ١٨١ -١٨٣) ، إذ كانت رسالة شعيب إلى قومه بعد التوحيد هو القسط في الميزان وإعطاء الناس حقوقهم .

وصالح عليه السلام ، يواجه الفساد والمفسدين يقول لقومه : "﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ (الشعراء : -١٥٢) .

ولوط عليه السلام ، يقوم في أمته السلوك والأخلاق ، ويواجه الشذوذ الجنسي ، وتفشي الفواحش والمنكرات ، يقول لهم : "إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين "﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾(العنكبوت: ٢٨-٢٩) .

و يقول ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ (الشعراء:١٦٥- ١٦٦)

ونوح وإبراهيم عليهما السلام ، يركزان على مواجهة الفساد الاعتقادي الذي تفشي في قومهما، ينفيان الشرك عن الله ، وينذران خطأ ما فيهم من التعلق بالآلهة من دون الله.

---

(١) سيد قطب ، **في ظلال القرآن** ، ط ٧ (٥ /٢٥٩٠)

وهكذا استمر البلاغ خاصا بقوم ، أو بأمر ، أو بخلق ، أو باعتقاد –وإن اجتمع عند بعض الرسل المبلغين عن الله أمور أو جوانب توجه إليها البلاغ– يتسع أمر البلاغ بتوالي الرسل ، حتى اكتمل على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ، جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ ابْتَنَى بُيُوتًا فَأَحْسَنَهَا وَأَجْمَلَهَا وَأَكْمَلَهَا، إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهَا، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ وَيُعْجِبُهُمُ الْبُنْيَانُ فَيَقُولُونَ: أَلَّا وَضَعْتَ هَاهُنَا لَبِنَةً فَيَتِمَّ بُنْيَانُكَ " فَقَالَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَكُنْتُ أَنَا اللَّبِنَةَ»[1].

(١)أخرجه مسلم في **صحيح مسلم** كتاب الفضائل ، باب كونه ﷺ خاتم الأنبياء ، ط١ برقم (٢٢٨٦)٤/١٧٩٠

obeikandl.com

المبحث الثاني : التدرج في إعداد أهل البلاغ .

وهذا جانب آخر مهم للغاية يتعلق بالتبليغ،قام أيضا على التدرج،وهو أن الله تعالى تدرج في إعداد المبلغين من الرسل وتهيئة سادة الدعوة وقادة الأمة.

وأوضح مثال لهذا الجانب : ما سلكه الوحي بمحمد صلى الله عليه وسلم ،فبدأ بإعداد فكره وعقله، وهو أول ما ينبغي الاهتمام به ورعايته وتربيته ، فيأتيه الوحي بأول آية من القرآن يقول له : "﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾" (العلق : ١) .

ثم يثني بإعداد روحه ونفسه ليكون الداعية العابد،زكي النفس ، فيترل عليه بقول الله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ .(١- ٦: المزمل) .

ولا شك أن الصلاة تربي النفس على الصبر والجلد ، وتورث النفس السكينة والصفاء يقول ابن يونس الخطيب عن القول الثقيل : إنه هو بيان للسبب الذي من أجله دعا النبي إلى قيام الليل، وإلى نزع ثوب الدّعة والسكون.. إنه صلوات الله وسلامه عليه- سيواجه- بعد اصطفائه الرسالة- أمرا عظيما، وإنه سيكلف أداء مهمة شاقة، تحتاج إلى أن يبذل لها كل جهده، وأن يقوم عليها فى كل لحظة من حياته، ليلا ونهارا.. فهذا القول الذي سيلقى عليه ، وهو القرآن الكريم ، هو قول ثقيل بما يحمل من تكاليف، هى عبء ثقيل عند كثير من الناس، كما أنها حمل ثقيل على النبي فى حملها إلى الناس، ودعوتهم إليها.

إن عهد النوم بالليل قد انتهى! فليوطّن النبي التي نفسه منذ الآن على الجهاد، وحمل هذا العبء، وليأخذ للموقف عدته، وإلّا ضعف عن حمل الرسالة، وأداء أمانة تبليغها، وقد علم أن إخوانه من الرسل، قد أبلغوا رسالات ربهم، وما كان له أن يقصر عنهم، وهو خاتمهم، وسيدهم.

وهذا التنبيه من الله سبحانه لنبيه الكريم، بما سيلقاه على طريق رسالته، من صعاب ، وما يحمله فى سبيلها من أعباء- هو الذي يهيىء النبي جسميّا ونفسيّا للمهمة الخطيرة التي

نيطت به ، وألقيت عليه. [1]

ثم يثلث بإعداده مواجها ، يقوم بتغيير المجتمع ويعاني من صدود قومه ، فلابد أن يصبر عندئذ في الله وفي سبيل دعوته حين البلاغ ، ليستمر البلاغ ويبلغ النجاح .. فيكون فيه شخصية الصابر في الله ، يقول له تعالى : ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ (المدثر : ٧) .. ويريه أن الصبر والتريث بالمدعويين ويصبر على أذى الناس وبلائهم ، ويصبر على تكذيب قومه له ، هو حال أولي العزم من الرسل فيقول له : ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡ﴾ (الأحقاف : ٣٥) .

ويأتي بعد ذلك إلى تحميله الرسالة دون تكليفه بالبلاغ والدعوة،فيقول له : ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ (المزمل : ٥) .

بعد كل هذا ، يؤمر بالتبليغ والدعوة بقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ (المدثر : ١-٢) .

بكل هذه الخطوات يعد الدعاة من الرسل المبلغين،فيعد فيهم أولا الفكر والعقل،ثم الروح والنفس الزكية العابدة الذاكرة،ثم الداعية الصابر الحليم،وبعده يحمل الرسالة ولا يكلف بالتبليغ،وبعد ذلك يبدأ بالبلاغ والصدع بأمر الله .

---

(١) الخطيب ، **التفسير القرآني للقرآن** ط١ (١٢٤٧/١٥)

obeikandl.com

المبحث الثالث : التدرج مع من يراد تبليغهم

وهذا جانب ثالث راعى فيه الإسلام التدرج في تبليغ الدعوة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو مراعاة جانب المدعويين بعد أن تدرج في تبليغ الرسالة عموما، ثم تدرج في إعداد المبلغين والدعاة .

ولقد كان توجيه القرآن الكريم لرسول الله صلى الله عليه وسلم في تبليغ الإسلام والصدع به، أن يكون على مراحل وخطوات ، يبدأ بالأقربين ، وينتهي بالناس كافة ، ولم يكلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في بادئ الأمر أن يلقي على الناس جميعا بلاغه المبين.
قال ابن القيم رحمه الله : "فصل في ترتيب الدعوة، ولها مراتب :

المرتبة الأولى : النبوة. الثانية : إنذار عشيرته الأقربين. الثالثة : إنذار قومه. الرابعة : إنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله وهم العرب قاطبة. الخامسة :إنذار جميع من بلغته الدعوة من الجن والإنس إلى آخر الدهر" [1]

فالنبي صلى الله عليه وسلم بعد بعثته بدأ بعشيرته الأقربين، كما أمره بذلك ربه عز وجل ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٤) ، وذلك ليكونوا له سندا وقوة، مستقبلا في نشر دعوته، فآمنت به زوجته السيدة خديجة رضي الله عنها، التي كانت سندا له بعد ذلك، وابن عمه على بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهو الذي فداه بنفسه ليلة هجرته صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، ثم دعا قومه، وهكذا، الأقرب فالأقرب ، وكل ذلك من التدرح فيمن يراد تبليغهم ودعوتهم إلى الله سبحانه وتعالى .

---

(١)ابن قيم الجوزية **زاد المعاد في هدي خير العباد** ط١، (١ / ٨٤) .

obeikandl.com

المبحث الرابع : التدرج في مقدار البلاغ

وهذا جانب رابع من جوانب التدرج في التبليغ ، هو التدرج في تبليغ حقائق الدين ، وشرائعه ، وأحكامه .. لا يبلغ الدعاة كل الدين بحقائقه وشرائعه وأحكامه للناس جملة واحدة، بقدر ما يطلب منهم أن يتدرجوا في تبليغها .

وليتدرج الدعاة في تبليغ ذلك،لابد لهم من نظر مستمر في أمر غاية في الأهمية،يحدد به نوع البلاغ وقدره ، ذلك هو النظر في أحوال الناس ممن يراد تبليغهم : هل هم حديثو عهد بالإسلام ؟ وهل التدين باق فيهم ؟ وهل يتحملون ما يلقى إليهم من البلاغ ؟ أم بعضه ، وهكذا.

فحديث العهد بالإسلام،لا يصلح معه تبليغه كل الدين،وإنما يجزأ له البلاغ بما لا يكون المرء مسلما إلا به، ثم الأهم فالأهم مع مراعاة الأيسر فالأيسر.

ومن لم يكن التدين فيهم باقيا،حيث غاب عن واقعهم السنوات،لا يطيقون التكاليف جملة والبلاغ دفعة،فيأتيهم التبليغ على سنين حتى يفيئوا إلى الرشد المفقود تلك السنين.

ولقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سيد الدعاة،حين أمر معاذ بن جبل برعاية هذه الأمور،وتحديد قدر البلاغ بحسب حال القوم الذين أرسله إليهم من أهل اليمن،حيث كانوا أهل كتاب يراد الانتقال بهم من دينهم ، الذي ترسخت تعاليمه فيهم ، إلى دين الإسلام الجديد ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدد له بم يبدأ؟ وماذا يقدم؟ وكيف يبلغ؟ : "«إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ» [1].

---

(١)أخرجه مسلم في **صحيح مسلم** ، كتاب الإيمان ، باب الدعاء إلى الشهادتين ط١ برقم (٢٩) ١/٥٠

ويوضح ابن تيمية رحمه الله هذا المعنى بقوله : "والحجة على العباد إنما تقوم بشيئن بشرط التمكن من العلم بما أنزل الله ،والقدرة على العمل به،فأما العاجز عن العلم كالمجنون،أو العاجز عن العمل،فلا أمر عليه ولا نهي،وإذا انقطع العلم ببعض الدين،أو حصل العجز عن بعضه،كان ذلك في حق العاجز عن العلم أو العمل بقوله كمن انقطع عن العلم بجميع الدين أو عجز عن جميعه كالمجنون مثلا ، وهذه أوقات الفترات،فإذا حصل من يقوم بالدين من العلماء أو الأمراء أو مجموعهما،كان بيانه لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم شيئا فشيئا بمنزلة بيان الرسول لما بعث به شيئا فشيئا،ومعلوم أن الرسول لا يبلغ إلا ما أمكن علمه والعمل به .

ويواصل ابن تيمية في توضيح هذه المسألة فيقول : ".. وكذلك المجدد لدينه،المحي لسنته،لا يبلغ إلا ما أمكن علمه والعمل به،كما أن الداخل في الإسلام لا يمكن حين دخوله أن يلقن جميع شرائعه ويؤمر بها كلها .. وكذلك التائب من الذنوب،والمتعلم،والمسترشد،لا يمكن في أول الأمر أن يؤمر بجميع الدين،ويذكر له جميع العلم ،فإنه لا يطيق ذلك ، وإذا لم يطقه لم يكن واجبا عليه في هذه الحال ، وإذا لم يكن واجبا لم يكن للعالم والأمير أن يوجبه جميعه ابتداء ، بل يعفو عن الأمر والنهي بما لا يمكن علمه وعمله إلى وقت الإمكان .." [1].

(١)ابن تيمية ، **مجموع الفتاوىط** ٣ (٦٠/٢٠)

obeikandl.com